كلمة رئيس الجامعة الأنطونيَّة الأب ميشال جلخ
في مناسبة تقديم الطبعة الثانية من كتاب الدرُّ الفريد في تفسير العهد الجديد
تأليف العلاَّمة مار ديونيسيوس يعقوب الصليبي († ١١٧١)
مطران مدينة آمد (ديار بكر)
٠٢ شباط ٢٠١٨

أصحاب السيادة،
أيَّها الحضور الكريم،

بداية تحية جلال وتقدير وإكرام لغبطة البطريرك قداسة مار أفرام الثاني على نشره رسالة المحبة والسلام وعلى نشاطاته وعمله في خدمة الكنيسة وشعبها المؤمن ولا سيما على زيارته الأخيرة لمدينة دير الزور بعد تحريرها الأسبوع الفائت.

لقد شرَّفنا سيادة الأسقف الجليل مار ثاوفيلوس جورج صليبا العزيز جدًّا، بأن نشاركَه فرحةَ صدور الطبعة الثانية، من كتاب الدُّرُّ الفريد في تفسير العهد الجديد، للعلاَّمة مار ديونيسيوس يعقوب الصليبي، باللغة العربيَّة، بعد أن طُبِع للمرَّة الأولى في مصر سنة ١٩٣٦، من قبل الراهب السرياني عبد المسيح دولباني، وأضيف إليها ترجمة لحياة المؤلِّف العلاَّمة، ودراسة عن موطنه مَلَطْية، قام بها قداسة البطريرك مار أفرام الأوَّل برصوم.

عند رؤيتِنا لحجم الكتاب الذي تزيد صفحاته على ستِّ مئة، زادت رغبتنا في معرفة سرِّ المؤلِّف الذي تجرَّأ على خوض غمار هذه الصفحات، يخطُّها حبرًا بأحرفَ مقدَّسةٍ، هي أحرف اللغة السريانيَّة العريقة. وبعد أن قرأنا عن موطنه ملطية في أرمينيا الصغرى، زال العجب. فالكاتب من أرضٍ مقدَّسةٍ "كان فيها أكثر من ستٍّ وخمسين بيعة عامرة بالكهنة والشعب السرياني الذي بلغ عدده ستين ألف رجل عدا النساء والصبيان"، بحسب الأنبا ميخائيل القبطي، وخرج منها العديدُ من القدِّيسين، والبطاركة، والأساقفة، والملافنة، والرهبان، من دون أن ننسى ما حَوَتْ من كنائس و"مدارس شهيرة تعلِّم العلومَ الدينيَّة وآدابَ اللغةِ السريانيَّة". لكنَّها أيضًا، أرضَ الحروبِ والاضطهادات والألم، فتاريخُها حافلٌ بروايات الجيوش التي اقتحمتها ونكَّلت بأهلِها، من دون أن تُفقِدَها إيمانَها.

أمَّا العلاَّمة مار ديونيسيوس يعقوب الصليبي الملَطي، المولود في القرن الثاني عشر الميلادي، فما إن قرأنا سيرة حياته أيقنَّا أنَّ حجم هذا الكتاب لا يساوي شيئًا أمام علمه واطلاعه وقداسة سيرته. فهو أسقف مرعش سنة ١١٥٦م، تلك المدينة القابعة بين قيليقية والأناضول، ومرافق البطريرك مار ميخائيل الأوَّل الكبير في دير مار حننيا بجوار ماردين سنة ١١٦٦م، وأسقف آمد (ديار بكر) مدَّة خمس سنوات حتَّى وفاته سنة ١١٧١ للميلاد.

ومن يقرأ مؤلَّفاتِه، يجد معنىً قديمًا لكلمة "لاهوتي" أو "عالم في اللاهوت"، لا كما نعرفها اليوم في تشعُّباتها وتخصُّصاتها المتعدِّدة، والتي يتعذَّر على شخصٍ واحدٍ أن يُلمَّ بجميع فروعها. فقد كتب العلاَّمة ديونيسيوس الصليبي في علم الكتاب المقدَّس وتفسيرِه، وهذا الكتاب الذي بين أيدينا خيرُ دليل، وكتب في العقيدة، وعلم الآباء، وتاريخ الكنيسة، والأسرار، والليتورجيَّة، والحقّ الكنسي، والفلسفة. كما اشتهر بفنِّ الدفاع عن الإيمان في

الردِّ على الخلقيدونيين، والخياليين، والإسلام، واليهود، والنساطرة، والأرمن. واشتهر بفنِّ الشعر وتأليف الميامر، فيصحُّ القول فيه إنَّه اللاهوتيِّ الشامل.

سنتطرَّق في حديثنا اليوم إلى منهجيَّة العلاَّمة في التفسير في كتاب الدرُّ الفريد، كما شرحها هو، ونتناول، مثالاً، ما جاء في تفسير الآية الأولى من إنجيل يوحنَّا الرسول: "في البدء كان الكلمة."

جاء في مقدِّمة المؤلِّف: (أقتبس) "إنَّه بعدما أكملنا تفسير التوراة والأنبياء [...]، أتينا لتفسير الحديثة (أسفار العهد الجديد) ولم نقل من ذاتنا شيئًا. بل إنَّما نحن نبني على أساس البانين قبلنا بناءً روحانيًّا فائدة للنفس". (انتهى الاقتباس) فتفسير الإنجيل قائمٌ عنده على ما فسَّره من قبله العلماء والآباء، وبالتالي تقوم منهجيَّته على ما يلي:

أولا: عرض المصادر العلميَّة التي استند إليها: مار إفرام، ويوحنا فم الذهب، والقديس كيرلُّس، وموسى بن الحجري ويوحنَّا أسقف دارا وغيرِهم .

ثانيا: "قطف المعاني المخفيَّة في مضمون تفاسيرهم بالاختصار" على حدِّ قوله، فهو يبتعد عن العرض الحَرْفِيّ لتفاسيرهم وجمعِها في مؤلَّفات، بل يقوم بالقراءة، والتلخيص، واستنتاج المعنى المشترك "المخفيّ"، في كتبهم، ويقدمه في نصٍّ جديد من تأليفه.

ثالثا: عرض المفاهيم اللاهوتيَّة التي استنتجها من قراءته لمن سبقه من معلِّمين، قبل البدء بالتفسير، لكي تكون مرجعًا لما سيتكلَّم عنه في تفسيره للأناجيل. فمنهجيَّتُه تقوم على إسقاط المفاهيم اللاهوتيَّة المسبقة على آيات الكتاب المقدَّس، بدلاً من أن يعكِسَ الأمرَ، ويقوم باستنتاج المفاهيم اللاهوتيَّة من الكتاب المقدَّس؛ وهذا مبرَّر لأنَّه عَرَضَ سابقًا قاعدَتَه: "لم نقل من ذاتنا شيئًا". أمَّا "المسلَّمات" اللاهوتيَّة فقد عرضها في المقدِّمة من الفصل الثاني حتَّى الفصل الثالث والعشرين .

رابعا: عرضٌ تاريخي عن الأناجيل الأربعَة والإنجيليين الأربعة ابتداءً من الفصل الرابع والعشرين حتَّى الثامن والعشرين من مقدِّمة المؤلِّف. والجدير بالذكر هو عرضُهُ لمبادئ أو قواعد الإنجيل بشكل عام، وهي سبعة:

١. إفادة الإنسان في حياته الروحيَّة من خلال الإيمان بالثالوث الأقدس والعِيشة الفاضلة التي تؤول إلى خلاص النفس.

٢. إكمال المقولات النبويَّة في أسفار العهد القديم.

٣. اسم الإنجيل يعني البشارة أي التبشير بالخلاص بيسوع المسيح.

٤. الإنجيل مقسَّم إلى "فصول" . وكلمة "فصل" هنا لا تعني "الإصحاح"، بل يقصد بها المفاهيم التي نستنتجها من فحوى الإنجيل وهي س

٥. الإنجيل هو "كتاب الله السيِّد المسيح" المنادى به بواسطة الإنجيليين؛ ٦. يُتداول بالإنجيل في الوعظ والتعليم في سبيل الله، وفي أوقات التكلُّم بالإلهيَّات وقصص القديسين، سرًّا وجهرًا؛ ٧. متى ومرقس ولوقا ويوحنَّا هم "مصنِّفو" الإنجيل. وهو يقدِّم ترجمةً لحياة كلٍّ منهم في بداية تفسير كلِّ إنجيل.

خامسا: تفسير آيات الإنجيل آيةً آية، ويتفاوت طولُ تفسيره للآيات بحسب ما تحتمِلُهُ من معنى، بين أربع صفحات، أو سطر واحد.

ومن الأمثلة على منهجيَّته في التفسير ما جاء في تفسير الآية الأولى من الإصحاح الأول من إنجيل يوحنَّا:

"في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله" (يو١/١)

ففي حديثه عن "البدء" يفرِّق بين "البدء الزمني": وفيه يفسِّر بحسب ما جاء في آيات العهد القديم والمزامير. وبين "البدء الأزلي"، ويذكر فيها ما جاء من أقوالٍ لآباء الكنيسة كيوحنَّا فم الذهب وكيرلُّس، ثم ينهي تعريفه بقوله: "وبناءً على ذلك نقول إنَّ الكلمة كان في بدءٍ يعلو كلَّ ابتداء وزمان؛ أي كان في الأزل والأبد دائمًا ."

وفي الحديث عن الكلمة يقول: "تدلُّ (أي الكلمة) على الابن الأزلي المولود من الآب. وفي هذا المعنى إحذر من أن تجعل الولادة كولادة الأجسام واقعةً في الزمان والمكان، وأيضًا ولو أنَّ الكلمة لا تفارق النفس فإنَّ ذلك من باب النظام المألوف، لأنَّ الله قادر أن يفرِّقَهما. أمَّا في الله فلا تنفصل الكلمةُ عن الآب وإن كانت قد صارت جسدًا ."

وهذا يُعيدنا إلى الفصول: الثاني والثالث والرابع من مقدِّمة المؤلِّف (ص ٥٤- ٥٦)، حيث يتكلَّم فيها على الزمني والأزلي، والعلَّة والمعلول، والولادة الأزليَّة والولادة الزمنيَّة، كتمهيد لما سيفسِّره في إنجيل يوحنَّا (ص ٣٠٩- ٣١٢).

وفي الختام لا يسعنا إلاَّ أن نُسرَّ معكم بصدور الطبعة الثانية من هذا الكتاب القيِّم، الذي يغني المكتبة اللاهوتيَّة العربيَّة. لكن لا بدَّ لنا من تعليقٍ على ما جاء في كلام الراهب عبد المسيح دولباني يقول فيه: "وإذ رأينا الكثيرين من أبناء الطوائف الأرثوذكسيَّة يتداولون تفاسير أجنبيَّة، وكان أَوْلى بهم أن يعتمدوا على تفاسير أئمّتهم وعلمائهم للأسفار السماويَّة، نهضت بنا الغيرة الدينيَّة إلى مراجعة هذا الكتاب وتنقيحه، وضبط عبارته وتصحيحه ."

لا ندري كم يفيدنا اليوم في علوم تفسير الكتاب المقدَّس، والنظر إليه من بؤَرٍ مختلفة الاتجاهات، أن نتحدَّث عن تفاسير أجنبيَّة أو أورثوذكسيَّة، أو برتِستانتيَّة، أو كاثوليكيَّة، أو أن نكتفي فقط بالتفاسير التي تعتمد على أباء الكنيسة، والفلسفة، واللاهوت الدفاعي، وننسى ما تقدَّمت به العلوم منذ سنة ١١٧١م سنة تأليف هذا الكتاب، أو سنة ١٧٣٨م سنة تعريبه عن السريانيَّة، أو حتَّى سنة ١٩٣٦م سنة طباعته للمرَّة الأولى في مصر من قبل الراهب عبد المسيح دولباني نفسه. وإني لواثق من أنه لو عاش العلامة مار ديونيسيوس يعقوب الصليبي في عصرنا الآني لأبى إلا أن يأخذ بالدراسات البيبلية واللاهوتية الحديثة، والتي هي بدورها تعود اليوم أكثر فأكثر الى تفاسير الآباء ومفكري العصور العابرة لما لها من مغزى روحي ومفاهيم مسيحية أصيلة بعيدة عن المغالاة العلمية والجدليات السفسطائية العقيمة. وشكرًا

رة يا سيد!